

مداخلة البروفسور سليم دكّاش اليسوعي، رئيس جامعة القديس يوسف في بيروت، خلال الطاولة المستديرة التي أقيمت حول كتاب الأب جورج فارس، في ١٨ حزيران (يونيو) ٢٠١٨ في الساعة السادسة من بعد الظهر، في جامعة الحكمة.

أودّ أن أشكر الأب جورج فارس لأنّه أوكلني مهمّة إعطاء وجهة نظري حول مقاله "فلسفة الزمن في اللاهوت المسيحي". في الواقع، إنّها لمهمّة صعبة، ليس لأنّ الكتاب صعب، لكنّ الصعوبة تكمن في مفهوم الزمن هذا الذي يتجذّر في الوجود الإنسانيّ الذي لطالما سعى أن يُسبغ عليه معنى، مع العلم أنّ هذا الوجود يريز تحت ثقل الزمن. نحن نعلم أنّ المسألة كانت أساسيّة في التقليد الفلسفيّ الإغريقيّ، بدءًا من أرسطو حتّى أفلوطين، مرورًا بالفلسفة الأفلاطونيّة.

من منظور مسيحيّ، نذكر نقطة التحوّل التي أحرزها المفكر المسيحيّ العظيم أوغسطينوس، أسقف "هيون" الذي بلور نظريّته الخاصّة بشأن الزمن في الكتاب العاشر من "الإعترافات". كان يمكن أن يكون هذا العبور من خلال مفهوم الزمن عند أوغسطينوس مقدّمة للفصل الأوّل من كتاب الأب فارس ولكن، لأسباب تتعلّق بالمؤلف، لم يكن الأمر كذلك. في الواقع، يفكر أوغسطينوس بالزمن بطريقة مميّزة وهو يرسّي أسس مفهوم فلسفيّ للزمن ضمن مقدّمة لاهوت مسيحيّ للوحي :

(١) لا يعود أوغسطينوس إلى أرسطو أو أفلاطون بل إلى الأفلاطونيّة المحدثّة لأفلوطين كما نقلها آباء كبادوكية وهم باسيليوس الكبير أسقف قيصرية وغيغوريوس النيصي وغيغوريوس النازيانزي.

(٢) إنّهُ يُبرز فكر أفلوطين الذي يتحدّث عن تصوّر للزمن قد يكون مرتبطًا بالروح الكليّة للعالم وليس بحركة الأجسام أو التغيّرات الكونيّة كما حدّدها أرسطو أو بالتوفيق الخارجيّ الذي قام به أفلاطون بين صورة العالم المحسوس الأدنى والجوهر في عالم المثل الأعلى.

(٣) لا يختار أوغسطينوس حركة انتقال الجسد في الفضاء بل حركة الصوت المسموع. الصوت يرتطم بالهواء، تصل الصدمة إلى الأذن وتغيّر حالة أعضاء الأجسام. تتحوّل الروح نحو هذا التغيّر وتنتج إحساس الصوت نفسه. وما نحن ننقل، في تصوّرنا للزمن، من المجال الجسديّ إلى المجال الفكريّ. لا يأتي تأثير الصوت في ما هو مرئيّ أو خارجيّ ولكن في ما هو داخليّ، في ذاكرتنا. قال القديس أوغسطينوس : "فيك يا رُوح أقيس الزمن". إنّها النفس البشريّة التي تصبح مكانًا للزمن، ويؤدّي الإدراك النفسيّ إلى جعل الزمن زمنًا تاريخيًا. يصبح الزمن الكونيّ الذي تسكنه الآلهة تاريخًا مقدّسًا يستعيد المحطّات الكبرى في العقيدة المسيحيّة. نلاحظ أنّ أوغسطينوس يرفض تحديد الزمن بالخلود لأنّ الزمن يمرّ بينما الأبدية هي عنصر دائم وغير عابر. في الواقع، كانت المسيحيّة تسعى إلى تجاوز كلّ ما هو إلهيّ كونيّ مرتبط بالوثنيّة وبالطبيعة الخارجيّة وقواها من خلال الميل للإصغاء إلى الله كمبدأ شخصيّ يتخطّى الكون. يلمح كتاب فارس إلى هذا المفهوم عن الله. لقد بلورت علمنة الفلسفة في العصر الحديث إستقلاليّة النفس البشريّة وبالتالي وضعت أساسًا نفسيًا للزمن.

ومع ذلك، يمكننا القول، من المنظور اللاهوتي، إن أوغسطينوس يدخلنا، بطريقة منطقية، إلى كتاب الأب فارس ولا سيما إلى الفئات التي يستخدمها، ولا سيما فئة الوعي كتصوّر للزمن. تمّ نهائياً تصوّر الزمن كمشروع بشريّ. هذا هو تصوّر الماركسيّة والوجوديّة، على سبيل المثال، والأب فارس يبغي بلورة مفهوم فلسفيّ مسيحيّ، على نحو صائب، يناقش مشاكل غير مؤقّنة بل زمنية كما ورد في أعلى الصفحة ١٠. من المثير للاهتمام أن نلاحظ، مع المؤلّف، أنّ الزمن موجود بقدر ما يدركه الوعي الإنسانيّ القائم على الحرّيّة كعملٍ بشريّ لدرجة يصبح الزمن فيها إنبثاق للوعي، كما يقول كتاب الأب فارس. والسؤال الذي يطرح نفسه بعد ذلك هو ما يلي : إذا كان الزمن هو انبثاق لوعي الإنسان، والتاريخ يصبح تاريخ الإنسان، كيف يتمّ تصوّر وجود الله، وهو الوجود المتسامي، في تاريخ البشر، بتجنّب خطر الحوليّة من جهة أو من جهةٍ أخرى بإبادة هذا التاريخ باسم الله الكلّي القدرة الذي يملي إرادته في صياغة تاريخ هؤلاء البشر.

تمثّل الفصول الخمسة التي كتبها الأب فارس تجرّبة فكريّة تستند إلى العقل من أجل تفسير هذا الإرتباط بين المسيحيّة والتاريخ. هذا ليس جديداً نظراً لوجود العديد من المقالات في هذا المجال ويستشهد بها المؤلّف بوفرة. كنت سأميل إلى الحديث عن التاريخ بدلاً من الحديث عن الزمن، لكنني أتفهّم قلق الكاتب الذي احتفظ بفكرة الزمن بالمعنى الشامل كأساس للوجود، لأنّ في هذا الزمن توجد بلورة محتملة لتاريخين، تاريخ يصنعه البشر وتاريخ يصنعه الله أيضاً ؛ وليس التاريخان بمتوازيين، بل هما تاريخان يلتقيان لأنّ الرغبة في الكمال والإتحاد في محبة الإنسان ليست سوى الصدى الأساسيّ لإله المسيحيين هذا الذي يبذل ذاته بحريّة في يسوع المسيح من أجل الإنسان وتاريخه بحيث يلخّص كلّ شيء فيه ككلمة حياة لا نهاية لها تجعل التاريخ يفتح على الأبدية. بغضّ النظر عن تفسير أحداث التاريخ، يمكننا القول إنّ أحداث التاريخ البشريّ تفتح الباب أمام تحقيق خطّة الله. يشكّل الخلاص، بطريقة ما، المسار المفتوح للتاريخ البشريّ لكي ينخرط في تاريخ الله بطريقة حرّة وسياديّة من دون أن يفقد استقلاليتّه ومحتواه. من المفيد مراجعة معتقدات المؤلّف حول وجود إله المسيحيين في التاريخ.

من دون التقليل من أهميّة الفكر الفلسفيّ-اللاهوتيّ للأب فارس، يحقّ لنا أن نطرح بعض الأسئلة التي تلازم هذا الكتاب وتفترضه. لا أودّ أن أذكر ما يستحضره المؤلّف كمشكلة، أيّ الماركسيّة كإيدولوجيا أليّة أو الوجوديّة الإلحادية التي تبني فلسفتها على الوعي المطلق كمشروع للذات ومن أجل الذات، وأنّ هذا الكتاب كان ينبغي أن يُناقش بالمواجهة مع المسيحيّة كبديل، كما يقول. من الطبيعيّ استحضار التبشير بالإنجيل الذي يجب أن يأخذ في الاعتبار ظهور الوعي في الأوقات الحالية التي تتسم بالوعي الفرديّ، ولكن كيف يمكن التطرّق إلى هذا التبشير عندما يتعلّق الأمر باللامبالاة المطلقة حيال كلّ سرّ، كيف السبيل إلى تكوين جماعة في حين يتمّ التشكيك بمفهوم الأسرة نفسه، وكيف يتمّ تأسيس كنيسة الربّ في الوقت الذي تظلّ فيه المسألة المسكونيّة مسألة أنيّة للغاية.

من ناحية أخرى، كنت أودّ أن يكون هناك نوع من المقارنة بين مفهوم الزمن في المسيحيّة بالترابط مع الإسلام من أجل استخراج علاقتهما بهذا الزمن كزمنٍ تاريخيّ. إنّ أيديولوجيّة أصوليّة معيّنة (يمكن العثور عليها في المسيحيّة) ولكّنها واضحة المعالم في التيارات الرجعيّة والمتطرّفة في الإسلام، ترفض المفهوم المسيحيّ للتاريخ ولا تعطي أيّ معنى للتاريخ لأنّ ما هو صالح هو الزمن

الخارجي الذي يفرضه لله على الإنسان. وكذلك الأمر، حتّى في الدوائر الشرقية المسيحية، لاهوت الوعي هذا الذي عالجه الكتاب والذي يعتبر يسوع المسيح "الوعي بامتياز"، يمكن أن يصبح علاجًا مضادًا لما يكاد يكون قدرًا أو حرفيًا أو كنسيًا يعطي مساحة صغيرة جدًا للوعي الحرّ.

ميزة هذا الكتاب هو أنه يُثير الأسئلة أكثر ممّا يقدّم الإجابات. إحدى الأسئلة التي لا تزال تشغل بال إنسان اليوم هي معنى حياته ووجوده ومعنى التاريخ. لكننا نعلم أننا لا يمكننا أن نستخرج المعنى إن لم تكن هناك تجربة روحية وإن لم تكن هذه التجربة مُعاشة بعمق على مستوى الوعي الفردي. هنا تكمن قوّة المسيحية التي تقترح دربًا تُنير السبيل، وحكمة تُرشد وممارسة للمحبّة والمغفرة في محاولة للمصالحة بين الكائن البشريّ مع نفسه وبين قلبه وعقله.